

بسالة الطبيب أو « الغاية تبرر الوسيلة »

للكاتب الفرنسي: فيلي دي ليسل آدم

«القتل من أجل المداواة» «الشعار الرسمي لإحدى المستشفيات»

توشك إحدى المحاكم في لندن على النظر في قضية غاية في الغرابة بطلها طبيب يدعى «هاليندهل» أما حقيقة الأمر فهي على النحو التالي:

في العشرين من شهر مايو الماضي كانت غرفة الانتظار بعيادة الطبيب الشهير تفصان بالمرضى الذين أمسك كل منهم بتذكرة الدخول بيده.

وفي مدخل العيادة وقف المحاسب مرتدياً معطفاً صوفياً طويلاً.. وشرع يتلقى رسوم العلاج المقررة على كل مراجع! جنيهان يدق عليهما - بخفة - بمطرقة للتأكد منهما قبل أن تنفج شفاته عن تلك العبارة الروتينية «لا بأس».

وفي المكتب الزجاجي الأنيق الذي توشّيه شجيرات كثيرة غرست في أحد الأحواض اليابانية الكبيرة جلس الطبيب الصارم! ملامحه الحادة ما كانت لتلائم مع ضآلة حجمه وصغر جسمه . أما سكرتيره فجلس غير بعيد عنه يدوّن وصفات طبية موجزة، فيما وقف إلى جوار الأبواب المتحركة الموشحة بقطيفة حمراء ثبتت بمسامير لها رؤوس ذهبية حاجب عملاق كلف بحمل تلك الأجساد المصدورة إلى صالة الانتظار ثانيةً حالما يلفظها المصعد الفخم فور سماع العبارة المألوفة: - المريض التالي! -

يلج المرضى البؤساء بنواظر تبعث على الأسى... عيون ندية من أثر الدمع، زجاجية جوفاء لخواء أفتدتهم من عذب الأمل وقد تحلّوا من ملابسهم العلوية حتى الخصر وألقوا بها على أذرعهم فيتلقون فور دخولهم العيادة فحماً روتينياً للصدر والظهر، يطرق الطبيب على صدورهم ثم يطلب منهم القيام بعملية شهيق وزفير، يتبع ذلك وصفة سريعة ثم تلك العبارة المعتادة: المريض التالي.

ذلك كان دأبه... وعلى امتداد سنوات ثلاث من التاسعة صباحاً وحتى الثانية عشرة.. وفود من المراجعين تترى... فتلقى ذات الإجراءات إلى أن يلفظها باب العيادة.

على أنه وفي هذا اليوم بالذات... في العشرين من شهر مايو ومع دقائق التاسعة تماماً تسلل شبح هيكلي لعملاق عجيب الهيئة، ولج إلى العيادة بعيون زائفة، وحدود غائرة، ونظرات حائرة يأسه سملها القنوط فلا تبصران غير العدم... كان قفصه الصدري يعلو ويهبط تحت قرع سعال شديد يكاد يهشم أضلعه... وكان الناظر إليه يعجب من بقائه على قيد الحياة... لم يكن به من أثر لها غير نفس يتردد في اضطراب يمزقه لهات وإعياء وسعال كسكرات الموت أو هو أشد وأعتى.

كان يحمل فوق ذراعه معطفاً من الفرو الثمين.... وبدا جلياً أنه كان يقاوم خشية أن يغمى عليه.... فكان يتشبث بأغصان شجيرات الزينة حتى لا يقع، وألقى الطبيب عليه نظرة سريعة ثم شرع في تطبيق ذات الفحص المعتاد. وما إن انتهى حتى صعقه بتشخيصه المؤلم:

- ليس باستطاعتي مساعدتك البتة!

ثم استطرد في تذمر واضح: - من تحسبني؟ مسجل الوفيات؟... خلال أقل من أسبوع ستبصق آخر خلية في رئتك اليسرى... أما اليمنى فإنها مثقوبة كمنخل!

وكان الحاجب على وشك حمله إلى الخارج حينما ضرب الطبيب الجليل جبهته بكفه فجأة كمن تذكر شيئاً ابتسم في مكر قبل أن يسأله:

- أنت غني؟

- أنا مليونير.... بل إنني أكثر من ذلك!

رد ذلك المدنف البائس اليائس الذي نفاه المعالج من عالم الأحياء في صلف إلى مجاهل الردى.

- حسن جداً إذأ - استأنف الطبيب - اذهب إلى محطة «فيكتوريا» على الفور ثم خذ قطار الحادية عشرة السريع من هناك إلى «دوفر» ومنها خذ سفينة إلى «مارسيل».... واحجز غرفة مبيت مزودة بالبخار ثم اتجه إلى «نيس» وهناك حاول أن تعيش على البقلة المائية المعروفة بـ«قرة العين» لمدة ستة أشهر.... «قرة العين» ولا شيء سواها... لا تتناول خبزاً أو فاكهة... أو لحماً أيأ كان نوعه. واحرص على تناول ملعقة من ماء المطر المعالج باليود كل يومين ولا تتس: «قرة العين» ثم «قرة العين» ولا شيء سوى «قرة العين»... مسحونه في عصارتها! ذلك هو آخر أمل لك... ومع ذلك فدعني أصارحك بأن هذه الوصفة قد بلغت علمي سماعاً فقط! ظلت تطرق أذني لفترة طويلة ومع ذلك فإني لا أصدق منها حرفاً وإنما اقترحت فكرتها عليك لأن حالتك ميؤوس منها... رغم تفاهتها فإني لا أرى ضيراً من تجربتها!... كل شيء في هذا الكون محتمل الحدوث: المريض التالي! ونقل هيكل العملاق المشلول إلى المصعد فيما استمر تواتر المرضى على مكتب الطبيب.

بعد ستة أشهر وفي الثالث من نوفمبر تحديداً.. ومع دقائق التاسعة صباحاً... تماماً اهتزت الأرض تحت وقع عنيف لأقدام مارم عملاق صوته كان جهورياً مربعاً رغم نبرة المرح المخامر، صوت قوي مجلجل زلزل أغصان النباتات الاستوائية وجدران الزجاج المحيطة بمكتب الطبيب .

ولج ذلك العملاق كقنبلة بشرية، ينضح صحة وقوة وسعادة وحبوراً- تبدي ذلك عبر خديه المتوردين تخال الدم منهما يوشك أن ينثال واخترق طيفه الأنيق الراقل في فروو ثمين معشر المصدرين الراسفين في أغلال البأس والشك والإحباط في عيادة الطبيب «هاليندهل» واقتحم مكتبه دون تذكرة دخول! كان الطبيب على وشك الجلوس حينما صعقه ذلك الاقترحام غير المشروع! وسارع العملاق باحتضان الطبيب ثم أمطر وجنتيه الغائرتين بوابل من الدموع والقبلات... وعاد يقبله مجدداً... بصوت مسموع قبل أن يضعه في كرسیه.. في شبه حالة اختناق من هول المفاجأة وحرارة القبلات التي لم يجد لها تفسيراً.

- مليوناً فرنك إن أردت! صاح العملاق! أو ثلاث! أنا مدين لك - بعد الله - في استعادة صحتي... في استرجاع المقدرة على العودة إلى ما كنت عليه من قوة ونضارة... في الاستمتاع بالشمس تسكب عقود تبر على أعتاب الوجود... في التقلب في أحضان العواطف المتأججة بجمال الحياة وعظمتها في... في كل شيء دون حصر... اطلب أي شيء سمّه وستجده أمامك!

- من هذا المعتوه؟ أخرجوه من هنا! قال الطبيب بضعف بعد ما استرد شيئاً من أنفاسه.

- كلا لا تفعل! قال العملاق مخاطباً الحارس رامقاً إياه بنظرة جعلته يرتد في ذعر إلى الوراء كمن تلقى ضربة قاصمة!

- واقع الأمر هو أن الجميع بمن فيهم أنت - يا من أنقذت حياتي - تابع العملاق - لم يتمكنوا من معرفة من أكون! أنا رجل بقلّة «قرة العين».

ذاك المصدر البائس اليائس الذي قصد عيادتك يوماً فأحلتته إلى حمية «قرة العين» لستة أشهر أليس هذا بديعاً أنظر إلى صنيعك. تأمل هذا! قال ذلك قبل أن يدقّ على صدره بيديه بقبضتين هائلتين لو طرقتا جمجمة ثور لهشمتاها.

- ماذا؟ صرخ الطبيب وهو يهب واقفاً كمن لدغته أفعى... أنت... يا إلهي أنت ذلك المحتضر الذي قمت ب....

- نعم... نعم وألف نعم... أنا هو بعينه ساعة وصولي ليلة البارحة أمرت بصنع تمثال من البرونز لك كما وإنني سأمر بوضع آخر لك في ساحة «ويستمنستر» حينما يتوفاك الله.

قال ذلك قبل أن يلقي بنفسه على أريكة ضخمة اهتزت أركانها وأزّت تحت وقع ثقل جسده. وتابع المبلّ من دائه في ارتياح وسعادة تبلورت في ابتسامته مشرقة انفرجت عنها شفتاه:

- ما أروع الحياة!

وهمس الطبيب إلى السكرتير والحاجب بشيء ما قاما على إثره بمغادرة المكان وألقى «هاليندهل» على مريضه السابق نظرة فاحصة... طويلة تحاكي الثلج برودة.... حدق في وجهه بصمت لدقيقة أو اثنتين ثم قال فجأة:

- اسمح لي أن أهشَّ عن جيبك تلك الذبابة!.

وما إن ختم عبارته حتى أخرج من جيبه مسدساً صغيراً وبسرعة البرق أفرغ منه رصاصة في الصدغ الأيسر للزائر المصعوق!

وهوى العملاق وقد تفرقت شظايا جمجمته وانتشر مخه الهائل على الأرض مزقاً مغطياً مساحة كبيرة من السجادة الفاخرة وظلَّت يدها ترتعشان تلقائياً... لوهلة قبل أن يغيبهما سكون الموت.

وأعمل الطبيب بعد ذلك في ملابس المغدور تمزيقاً حتى بدا صدره للعيان ولم يتردد في إحداث شق طولي عبره بشجاعة متناهية... أحدث ذلك بضربة واحدة من مشرطه العريض!

عندما دخل شرطي عيادة الدكتور «هاليندهل» بعد ربع ساعة وطلب منه مرافقته وجده منكباً على مكتبه في هدوء يحسد عليه فاحصاً عبر عدسة مكبرة رثتين هائلتين وضعهما أمامه في اهتمام . كان نابغة الطب ذاك يحاول استشراف كنه ذلك المفعول السحري لبقلة الماء وما أحدثته من أثر إعجازي في رثتي المتوفى.. عبثاً كان يبحث عن إيضاح مقنع لما حدث!

- أيها الشرطي! قال هاباً من مكانه .. لقد شعرت بحاجة ملحّة لقتل ذلك الرجل لأنني كنت على يقين بأن إجراء تشريح عاجل لحالته سيكشف لي سرّاً بالغ الأهمية فيما يتعلق بالانحلال الحاصل لحيوية الجنس البشري وتدهور خلاياه.. والدور الذي تلعبه الأعشاب في الوقاية من كل ذلك وهذا ما جعلني أبادر دون تردد - وهذا اعتراف صريح مني بذلك - في التضحية بضميري في سبيل واجبي.

وغني عن القول أن سراح ذلك الطبيب الشهير قد أطلق على الفور تقريباً
مقابل كفالة شخصية إذ إن حريته كانت أهم من اعتقاله بكثير.

تلك القضية الغربية - كما أسلفت - ستطرح كيما تنظر المحاكم الإنجليزية
فيها ونحن على يقين من أن بطل تلك الجريمة السامية لن يواجه عقوبة الإعدام
لأن الإنكليز - تماماً كما هو الحال مع الفرنسيين - قادرون تماماً على استيعاب
المفهوم المتلخص في أن:

المحبة المحضة لمستقبل الإنسانية دون أخذ إنسان الحاضر بعين الاعتبار هي
- في زمننا الحاضر - الدافع الوحيد لحتمية تبرير إخلاء سبيل ذوي الشهامة
من متطرفي العلم!

